

## إلى أين تأخذنا أيها الشاعر ؟



منير خلف\*

كعب الشعرُ غذاءُ القلبِ الذي لا يمكن من دونه أن ينبض، وهو هواء الروح الذي لا بديل عن تجليات نسامه الزرق لمواصلة طريق الحياة. إنه الوردة التي تأخذنا بصوت رحيقها إلى عوالم الكشف، وجبر ما تكسر من فخار أمنياتنا. إنه النداء الطويل الممتد امتداداً البصر، واتساع رقعة الحزن، وهو الحارس الوحيد لأرض أحلامنا، وجغرافية دمننا المهدور .

هو الذي يجعلك تشعرُ أن رؤوس أصابع يديك تنزفُ طيوراً من ضوء أخضر.. وأن المطر لا يهطلُ إلا ليكون بديلاً عن قطرات رطبٍ من قمرٍ تنتظره قلوبٌ عاشقةٌ، وأيادٍ من غمام.

ولأنه الشعر، الذي لا يمكن إلا أن يكون شعراً، حاولتُ أن أصغي إلى صوت قلبي، وأستفتيته عن ضرورة النهوض بهذا الكائن الذي سمّته اللغّة: شين الشهد، وعين العين، وراء حربٍ، أبت إلا أن تعترض بين حاء حنون، وباء غريب، فلم يخذلني وهو يومئ إلى الشعراء، الذين ربما أكون واحداً من جلدة سلالتهم، وبصمة حريقهم المستمر. ولا أبرئ نفسي من سوءتها الأمانة بالألم، حين يأخذنا الحرف إلى ما لا انتماء لحاسته المتجهة صوب أرض غير ذي قلبي، فرأيتني أصرخُ رها على غير عادةٍ من أثر الاحتفاء بما استهلك من مألوفات المعاني وزخرف الكلام، وألفيتني قاصداً جوار الآخر المقابل لقاibus جمرة الشعر.. إلى قارئ لا يمكن للشاعر من دونه إلا أن يلغي نفسه وحقيقة وجوده، كونه المتمم الرئيس لاستمرارية علقته فعله الإبداعي، المزيّن لعملية إجهاض تاء التأنيث، حين تعثر صاحبها

على باب القصيدة، ولكي يكون للشعر مستقبلاً، ويصبح كالرغيف الساخن الذي تتلقفه الأيدي، ويصير كخبزٍ عاجل يُنعش الروحَ، لا بد للشاعر أن يُحسن أثاث غرفته، وأن ينهض بكلماته بعيداً عن الرتابة والتكرار والجمود.

فعندما يدعوك إلى غرفة حالته الشعرية، التي كاد أغلب شعرائنا أن يفقدوها، أو فقدوا سند تمليكها، لأن جيوب أرواحهم باتت متخمة بالإفلاس.. عندما يدعوك إلى غرفته المنشودة، التي زخرف فيها نقوش قصيدته المعلنة، وأشهر في أرجائها دفاء الكلمات، وحميمية صورها الطازجة، وتفاعلهما، وتناغمها مع الفكرة التي كانت سبباً في إطلاق عصافير المعنى من قفص التقليد، وتحليقها في فضاء الغرفة الجديدة.. الغرفة التي تنعشك، وتنسى أنك في زمان ومكان محددين.. عندما يقدم لك صاحب البيت الشرعي، والشعري، ما لذ من فكر، وطاب من روح.. عندما يمنحك مفاتيحه المسحورة، التي كتب بها قصيدته، وهي بين أنامل شهيتك، ولا تطيق انتظار التهامها بالحواس التي لم تعهد أن تستعملها من قبل، ليس لأنك لم تكن تمتلكها، وإنما لكونها يائسة وغافلة عن شجونها، وهي الراقدة أبداً في هشيم الذات، وبئرها المعطلة.. عندما يمنحك تلك المفاتيح النادرة، كي تفتح بها أبواباً لم يطرقتها قبلك، وتحلّق في فضاءات لم يكن بإمكانك أن تكتشفها لولاها، واعلم أن من مهام الشعر العظيمة أن ينهض بأسرار أعماقك، وأن يأخذ بيدك إلى حيث لم تذهب قط، فكيف لا يكون ضرورياً؟؟ وكيف لا يكون له مستقبل؟؟

عندما يهبك كروم قلبه.. ونبضاتٍ جرحه.. ويكون حارساً على شروكٍ عنه، وعن معارج قصيدته الحافلة بموائدٍ لم تخطر على قلب قارئٍ، ولم تمتدّ إليها يدٌ عابرة، وهو يبحث عن غزال المعنى في كِناسِ الفكرة المستنفرة..

عندما يفرش أمامك نكسته مع الحياة.. نكسته المفجعة، التي تؤرّخ غموضاً غير مقصودٍ في تضاريس الألم، وتهدي بعض الضالين إلى مشارب الإبداع، وقواريرها، التي من خضرةٍ وطيور ماء، وحولها يواقيتُ من حبقٍ وجلنار .

عندما تشعر أنك لا تحارب ظلك.. ولا تقتفي أنهار عزلتك.. عندما تخرج من نفسك لتقف أمامها، أو لتتصّفحها أمامك.. عندما تنبسُ روحك بما لم تكن قادراً على جلبه من ذاتك، أو ذاتها، أو غافلاً عنهما.

عندما تحلّق معه بجناحيه.. ويؤرّخ لحظتك المشرقة.. ويحدّد وجهتك التي لا تنتمي إلى أية جهة ألفتها من قبل، ولم تشمّ في ربوعها عبق الحياة وباسمياتها.

عندما يُبعدك عنك ليقربك منك.. كي تصل إلى أسوار حكمته، وفواجع لم تجربها بعد  
خيول محتك.

عندما يسحبك من حرير قلبك.. ويغطي بردك العنيد.. وأنت تجفف ثياب روحك،  
وتلم شتاتك، تدفئ أوصالك في حضرة قصيدته التي من نار وهناء.. في قر شتاء لا مثيل له  
في قسوة غربة الشعر عن الشاعر، ونضارة الكلمات وهي تفر من تابوت القواميس.. في  
حضرة قصيدته تنسى أنك أنت.. تقرأ روحك في عينيه.. وتنظر بنبراته إلى أفق يسورك  
بأنفاسه.. ويعالج سقمك بمداد صوته .

ومن غير رقيب لم يطلق حراس سمعك آية طلقة نحو كلماته، كونها نابغة من بين  
رياحين قلبه.. فأفسحت المكان لتدخل القصيدة - العروس - بكامل بهائها وأنوئتها.. بكامل  
تجلياتها.. وبكل ما فيها.. لتدخل إلى مملكة قلبك.. ولتحل على عرشه.. كي تسود أنت .

تأشيرته دخولها إلى بلاد قلبك، كانت بصمات حزنه.. ونواح روحه.. ودموع قلبه.. كانت  
صدق حروفه، واحتراق فؤاده.. كانت دماء معانيه، وأيائل أفكاره.. كانت أزاهير إيقاعه..  
ومطر خيباته.. وكانت خصوبة الحياة.. ويباس أبنائها الطويل، وقساوة قلوبهم... كانت..  
وكانت .. وكانت مرآتك .

تدخل القصيدة إلى قلبك، لتسبح أنت في فلكها.. لأن صاحبها أنت، ولأنك لم تكن سواه.

فيا أيها الكريم !.. يا أيها الشاعر - الشاعر - أفص علينا بركات حزنك، ونعيم بكائك..  
أدخلنا إلى محراب عطرک.. وبارك لنا مقامنا بين كشوفات أسرارک، وسحر كلماتک، ليصير  
الشعر حاجة كاملاً والهواء، ولا نخشى على انقراضه، كما نخشى على كل شيء جميل .  
إن كنت أنت، فلا تجرح ثقافتنا.. ولا تشوه ملامح معرفتنا نحن - الماكثين - على شفا  
هاوية من عدم وهباء.

لا تدعنا خارج غرفتك.. خارج فهمنا لك.. أو حبك لنا، حتى لا نتجمد.. ولا نتحول إلى  
هياكل من صقيع التقليد، ولثلا موت عطشاً، ونحن نمد أيدينا أمام صدا التكرار وأصنام  
الغموض.

كن معنا، ولا تكن علينا، ليظل ذلك النسج في المستقبل البعيد، زادنا الكامل الذي

نواجه به تصحر العالم □

\* شاعر وأديب كوردي سوري. مواليد ١٩٧٠، الحسكة.